

١٠ غالب.. شخصية التونسي الدينية من خلال أمثاله



يُعدّ قطاع الدين الشعبي أحد المحاور الأساسية في إدراك كينونة فضاء اجتماعي مّا، وهذا المجال لا يزال يشكو إهمالا داخل أوساط الدراسات الاجتماعية والإنسانية، في مجمل المجتمعات العربية، برغم انتشار الكليات والمعاهد المدرّسة للدين والاجتماعيات، التي لم توفّق إلى حد الآن في القطع مع الانعزال النظري والانخراط في الاندماج العملي. وأمام هذا النقص الحاصل يزعم غربيون قيامهم بدراسات إنسانية وسوسيولوجية للمجتمعات الأخرى، خوّلّت لهم وعي بناها الدينية والأسطورية. أشك في الزعم المضخّم، وفي اقتدارهم لبلوغ وعي متكامل وصائب. ولكن الأنكى أن كتاباتهم تتحول إلى أناجيل لدى أبناء البلدان المزعوم دراستها، بين عامتهم وعلمائهم.

ومن هذا العوز يبدو ملحّا تكوين إناسي أبناء البلد، لإدراكهم اللهجات ولإلمامهم باللغات والفاكرات المحلية، التي تتغير وتتلون من موضع إلى آخر. والغريب أننا في الفضاء الإسلامي نرنو لتأسيس تحول حضاري، في غياب الإلمام والفهم لـبُنانا الذهنية، وخصوصا ما تعلق منها بالديني والأسطوري، برغم ما تلعبه من دور مصيري في دفع أو كبح أي تطلع أو أي مسعى للنهوض. من هذا الجانب كان سعينا لمحاولة تجميع الأقوال والأمثال الشعبية، بغرض بناء نص متماسك وتمثلي للفاكرة الدينية التونسية، ولا ندعي أننا استطعنا الإلمام بها في كل مقولاتها، فهي ثرية الأقوال، متداخلة التوظيف، ومتضاربة التأويلات. ولم أسع في العرض إلى تحليل تلك الأمثال والأقوال، وهي ذات دلالات نفسية وسوسيولوجية

وإدراكية عميقة، برغم ما طرأ على بعضها من تجاوز في السلوك الاجتماعي وفي التمثيل المعرفي، واقتصار الاهتمام على التسجيل والرصف، برغم رجعية بعض الأقوال ولامعقوليتها، كل ذلك غاية رصد تحولاتنا الذهنية والدينية لمن شاء ذلك، فبعد أن استقيت مجمل هذه الأمثال من الوالدة (عائشة بنت التقاز حفظها الله) منذ مطلع طفولتي، آليت على نفسي تدوينها. ثم حرصت على أن أنسخ من تلك الأمثال نصا مقروءا في صيغة متجانسة. وقد لا يكون المثل ذا مقصد أو غرض ديني بالأساس بل وظيفي عبارات ذات مدلول ديني، يُنبئ عن تمازج الديني بالدنيوي في الفكرة الشعبية. كما لم نعمل على الفصل بين الأمثال والأقوال الشعبية وحشرناهما معا، إذ كما يقول محمد المرزوقي في كتاب "الأمثال الشعبية في تونس": "رغم دوران كثير التعابير على ألسنة الشعب في الأحاديث العامة والخاصة، فإن قلّة من المثقفين من يفرقون بين الأمثال الشعبية والتعابير الشعبية، مثال ذلك: (كان جات تجيّدّها سبيبة، وكان مّشات تقطّع السلاسل)، فهذا المثل ناشئ عن تجربة وتفكير شعبي يؤمن بتداخل الحظ في اكتساب الدنيا فمن ساعفه الحظ اكتسب. أما قولهم: (فلان لا يبلّ لا يعلّ) أو (لا يحكّ لا يصكّ) فهو مجرد تعبير بسيط لا يتضمن حكمة ولا تجربة، وكل ما فيه أن فلانا لا يضر ولا ينفع. وقد آثرنا بعض التدخلات من جانبنا - لا على الأمثال والأقوال في ألفاظها - غاية ربط كل مقطوعة بأخرى، مع تنبيهنا لأمر هام أن ذلك القول قد تتجاوز دلالاته غالبا ما ذهبنا إليه، وقد يتم استحضاره في مواضع متعارضة كلياً مع ما اخترنا له. يتم ذلك وفق سياق الكلام أو بحسب بلاغة المتحدث أو بحسب المعتاد الخطابى في جهة مّا، خاصة وأن لغة الأمثال - على حد تعبير الطاهر الخميري - لغة حديث وفيها من أنواع التعبير ما لا يظهر في النص المكتوب فلزم التفتن من القارئ إلى الأمر. وقد حرصنا على ذكر تلك الأمثال والأقوال وفق ما شاعت عليه بحسب نطقها الريفى والمدينى. فكما ساهم الحضري في إنتاجها ساهم القروي والريفى أيضا، فهي ثروة شعب بكافة شرائحه: "جبالى" و"فريقي" و"ساحلى" و"جريدى". كما نلّفت انتباه القارئ غير التونسى أن استعمال بعض الكلمات أو الأفعال قد تُوهم بمدلول عربى فصيح، شائع ومتواضع عليه، في حين تأتي في الاستعمال التونسى على غير ذلك، حيث تحمل دلالة مغايرة، ولذلك نتمنى الاستعانة بقاموس للدراسة التونسية لمن أشكل عليه الأمر. ومن باب الأمانة العلمية، آثرت ذكر اسم صاحبة الرواية الشفوية - عائشة بنت التقاز - والعباد يسكن الدينى في عمق الشخصية متجليا في فرحها وترحها، في وعيها بذاتها وفي علاقتها بالآخر، في نشاطها في الوجود وفي تشوّفها لما وراء الوجود، لذلك كان الحثّ "كون° في الدّين كريف الذهب يرق وما يتقطّع عرش"، فالتونسي يتمنى "إن شا الله اللّٰه خالق مـ الأرحام داخل في دين لـسّلام"، ويخشى ممن يفتقر قلبه إلى الحس الدينى بقوله: "تـقطّع لـيمان° من قلبه"، فخلص أن "اللّٰه ما يخاف من ربي ما يخاف مـ العبد" ولذلك نبّه قائلا: "خاف من

ربي وخاف مَلَّيَّ ما يَخَافُشْ من ربي"، وأحيانا يجمع بين خوفين، أحدهما مستحب والآخر مكروه: "الخوف مِ ا طاعة ومِ النساء مذلَّة" لاعتقاده أن "طاعة النساء تدخِّلُ النار". ويمتزج الدين لديه بتونس، حيث "حب الوطن مِ الإيمان" إذ "الدِّين يشد الإنسان كيف الحزام للحصان"، وتعني قلة الإيمان انحدارا باتجاه السلبي إذ "اللَّي يَئِس من رحمة ربي كان الكافر" لأنه "ما أقربش من رحمة ربي" فالارتباط بينهما "الشَّؤم وقلَّة الدين"، ولذلك كانت خير مواضع الإيمان القلب، ومن افتقده من القلب "تقطَّع ليمان من قلبه"، فعدا "قِرْ بِلَّة لا دين لا ملَّة" أي "لا يُصلِح لا للدنيا لا للدِّين".

ويبدو هذا الإيمان أحيانا متحرِّرا من سخافة المشعوذين وادعاءات النفّاثين، فكان "اللَّي يَمِّنْ عزَّام كذِّب مِيات نبي" أو بعبارة أخرى "اللَّي صدِّق تقَّازة كذِّب أربعين نبي"، وتُفضِّل الفاكرة الشعبية الكُفر المبين على التدين الزائف "كُفْر بُلُيغ ولا دين مدَقْدَق" مفضِّلَة "كافر على دينه ولا مسلم مَخَاوِز"، أو بتعبير آخر: "كافر على دينه ولا مسلم منافق"، وقد لا ترضى بالمنزلة بين المنزلتين "لا طاع ربي لا طاع الشيطان". وما يميز التونسي تعريفه العملي والفعل للإيمان والكفر، فهما مرتبطان لديه بأثرهما، ولذلك نجده يخرج به من التعريفات النظرية إلى التجليات الفعلية، فمن يكفر بربه كمن يُناقض قانون الطبيعة: "اللَّي يَعْارِد السما عَمَى"، "حجر على من كفر". ونعود للتجليات العملية للكفر والإيمان فعدم الوفاء بالدِّينِ إخلال بالدِّينِ "الدِّين يَن يهدم الدِّين". وتتجلى أنماط الكفر المادية مع أنماط كفر ذوقية، دالة على رقي ذهني نادر في تحديد مفهوم الكفر، فمثلا من أفرط في إظهار الحزن على الميت كفر "أهل الميِّت صبروا والمعزِّين كفروا"، وعدَّ التمعُّن في القبح كفرا: "خَرَّانِك للقبيح كفر صحيح".

فالدين أحد مكونات الوعي الأساسية، ثري لدى التونسي مثل "الكبير ربِّي"، فكانت "الشكوى لربِّي"، بصفة ا نور العالم، ولذلك قيل لكل ضوء اصطناعي "ضو" ا خَيْر من ضوِّك". ويملاً التونسي الوجود بأمر التوحيد، فيأتي الأمر جمعا ومفردا: "توحِّدوا ا" و "توحِّد ا" إذ "الرب واحد والخال شاهد". وإذا ترجَّاك في شأن هام جعل ا عرضة أمامك: "بجاه ربي" فـ"ربي في الوجود وخيرو ممدود". فحيثما كنا ثمة وجه ا ا وعباد في كل بلاد"، وهناك إقرار بصنعه "أحنا خليفة ربي"، وبمشيئته "خلق العباد كيف ما اشتهى وراد"، وبرعايته أيضا "اللَّي خلق ما يضيِّع" و"عمرو ما يخلق خليفة ويضيِّعها" و"اللَّي خلقو أدري بيه"، وهناك ثقة كبيرة في رحمته: "ما يفرِّجها كان العالي" إذ "الكبير ربي"، الذي "ما تخفاه خافية"، فكان اليقين "اللَّي يشدّ في ربي ما يخيبش"، فـ"ما ثمة كان قدرة ربِّي" و"المقدّر كاين"، حتى قيل "لا تهتم اللَّي في علم ا يتم"، ولذلك "إذا المولى قدّر ما تنفعش دباره"، فانجر عن ذلك "اللَّؤم بعد القضاء بدعة"، بيد أن "اللَّي يُسْتُرو ربي

يتحدّث"، لأن "السّتّار" فالإنسان يمشي الظلّ ظلّ ويا ستّار تُستّر". ولذلك يقول التونسي: "ربي يُستّر في العقاب" وإذا تمنى لك الحفظ قال: "اسمك عليك"، لأن لديه يقينا أحيانا "لو تهبط بيير وتطلع بيير وتسرّ فيق كيف جناح الطير اللّبي رايد ربي لا بدّ يصير".

ولأن "القوة لربي" ينظر التونسي إلى البحر المتلاطم ويقول: "ربي أقوى منك يا بحر" لأن "ربي قيّاد في العفّار" أو بتعبير آخر "ربي خسرّاي في العفّار". ويرنو الفرد أحيانا لمشابهة تلك القوة، رافضا الضعف والوهن: "العظم الرهيف" يكسّره، وكلّما صعقت المرء قوة قاهرة قال مستعيذا: "بسمك وبك"، وبذلك كانت "الشدة في ربي ميسّ في العبد"، فترتّب عليها "أصبر على داكّ حتى يفرّج ربي"، حتى وإن كان المواجه داءً ميؤوسا من شفائه، فلهذه إقرار "ربي خلق الداء والدواء"، فنتج عنها "اللّبي معاه ربي ما يرغّلاب".

وغالبا ما ارتبط رضاء الله لدى التونسي برضاء الوالدين: "الله ورضا الوالدين" و"يا رضاية الله والوالدين"، ولذلك كان دعاؤه "الله يفكّنا من الدّين ودّعنا الوالدين"، طالبا "الله يرضّهم علينا درّنا واخرة" إذ "العزّ بعد الوالدين حرام"، فله خشية من الدعاء خصوصا منه "دعوة فجر"، ولكن يؤمن أيضا أن "دعاء بلا ذنوب في راس مولاه يذوب". والله لدى التونسي خير مطلق "ربي ما يقدرّ كان الخير". والهناء والسعادة نتيجة خيط رقيق متمثل في: "إذا سألتك الله فاسأله البخت" فالإنسان كيف حوّل المقطع مرّة يجي في جامع مرّة يجي في مريضة"، لأن "اللّبي خطاه بخدّو ربي سخطو" فالتهيّل من عند ربي "وإذا يريد لك ربي الشفا يعرضك الطبيب في الثنيّة" وإذا "حبّ الله تتسخّر لرحمّاه واللّبي كان مرّيس بعلاّته يرتاح"، فمن "درج لدرج يأتي الله بالفرج" فإذا ربي رايد بصلاحك بلا دواء وطبيب تدبّر جراحك"، ولذلك كان "الطبيب يداوي والفرج على الله"، فإذا بعث ربي الشفا يوالّم الدوا"، ولذلك كان التونسي حتى في حالات خطئه يطلّب: "الله يتوب علينا وعليكم". الأرزاق والأشداق

وفي الإقرار بقدرته تعالى، كان اعتبار "الرزق على الله" و"القسم من عند ربي" و"القسم متوكّل بيه ربي" و"رزق حدّ ما يفكّه حدّ". ولذلك كانت حتى الحشرة رزقا على الله، حتى قيل: "عطاك ربي يا نمة" و"سعة كولي وبرّقي عينيك". فلا خوف من يوم غد: "أنفق ما في الجيب ياتيك ما في الغيب"، ولذلك كان التمنيّ الدائم "إن شاء الله يولد يربي واللّبي يحدّد يعبّي"، إذ يقول التونسي: "الباب محلول والرزق على الله"، فهو "ما يخلق لَشّداق إلا لامّا يقدرّ رلّها لَرزاق"، ولذلك يقال: "الأولاد رزقهم على ربي"، لأن "الطّاعم ربي والحارم الشيطان"، مؤمنا أنه: "كول

بالمرّة حتى ياتي ربي باللّحم" ف"إذا أذّن العشاء ما يبات حدّ بلا عشا"، وأمام
 كثرة الخلق هناك إقرار أن "ما يجزّي المخلوق كان الخالق"، و"إذا حبّ الله يعطيك من فمّ
 المدفع يسقيك"، ولكن "ما تاكل إلا ما يكتديّ لك وما تكسب إلا ما يعطيك"، ف"إذا عطاك
 العاطي لا تشاطي لا تبطّطي، وإذا ما عطاك شّ العاطي حتى كلامك يولّي خاطي"، إذ "الفقر
 والغنى يريد ربي"، لأن "كلّ واحد ربي عطاه برّدو على قدّ كسّاه"، ولذلك يقول التونسي:
 "يغنييني ربّي". ف"الإنسان ما يّاخذّ كان اللّبي كاتبلو"، ويتأكد هذا الإصرار على
 علوية الغنى والفقر في الكلام المنسوب إلى الله عز وجل: "أنا فقّرته ونوّت غنّيه أنا
 قتّلتّه ونوّت حنّيه"، وبالإقرار "اللّبي كاتبلو ربي الشقا ما يعيشش مرتاح" لأن
 "الحنّينّيات الله لا يقلّهم على حبيب" فهي ضرورة وقت الشدة. وبرغم ذلك يقول في رضى
 أحيانا "إن شاء الله بايّنّا في الجنّة" و"اللّبي عطااه يعطيك واللّبي غنّاه يغنيك"، وكان
 الشرط لديه "استّقنّ بالقليل يعطيك الله الكثير"، كون "اللي قلبو كبير ربي يعطيه"،
 ف"ربي موجود على عباده وجود" مع الإلحاح على الشكر والحمد: "اللّبي ما يحمد مـ القليل
 ما يحمد مـ الكثير"، وقد تطفّن الحس الشعبي إلى التلهف في النفسية البشرية من خلال قول:
 "كيف جّا ربّي يقسّم في العقول كلّ واحد رضا بقسّمّو وكيف جّا يقسّم في الأموال لا من
 رضا بسهمّمّو". لذلك تجد البعض "لا يشبع لا يحمد ربي"، وهناك حتّى على المحافظة على عطاء
 الله: "اللي عطا رزقو في حياتو طلب الله وما غاثو"، ولذلك قيل: "ربي اللّبي عطاك يعرف بابا
 دارنا"، لأنه أحيانا "ربي يعطّي الفؤول للّبي بلاش زرّوس"، فكان "اللّبي ما يعطيه ربي
 ما يعطيه العبد"، لأن "اللّبي يعطيه، يعطيه ربي" و"اللّبي يعينّو يعينّو ربي"، فكان
 الرجاء "الله يسهّلها وقت اللّبي تحضر". ولكن كما يأتي قول الله على لسان التونسي: "إنّ
 عليك الحركة وانا عليّ البركة"، ينتشر التمني بالمثل عند أداء أي عمل: "إن شاء الله بركة
 مريش حركة" بصفة "الرزق من الله"، فهو "يرزق عبّدو من عبّدو وهو الكل من عبّدو"
 ف"الناس بالناس، والناس بالله"، وإن استكره التمني الواهن أحيانا: "كلمة لّو كانّ
 أخت الشيطان". فهناك تكامل بين العلوي والأرضي لحصول الرزق، كون "البركة وبينّ يبارك
 ربي"، لأن "ربي رحمتو واسعة". وحركة الرزق مشروطة بطهر في وعي التونسي ف"رزق الحرام ما
 يثمّرش"، مؤكدا اعتقاده "رزق الحرام يمشي في الظلام"، ولذلك وجبت المحافظة على
 الدّين في طلب الرزق "كول بعرق جبينك خير مـ لّبي تبّيع دينك".
 ويعد العمل فعلا قدسيا، ف"الفلاحة عبادة" ولذلك كان الحظ على "أخدم بالصفّا يحبّك
 المصطفى"، فالله يقول: "أخدم زعّينك اُرّقد زهينك" فكان أن "عطااه ربي وعانه نقّصله
 من ذراعه وزاده في لسانه". وكانت البطالة مدعاة لكل مفسدة عبر عنها المثل "خدمة الصوف
 تستر وتنهي ع المنكر"، حتى ربط بين "اعط الفرض وانقب لرّض"، مع الدعوة إلى "بارك الله في

من اخدم خدمة وتقنها". فالتاجر صادق ما أعطى الحق وأخذ الحق لأن "فلوس الحرام تمشي في الظلام" إذ "بالحلال ويا باب الله" و"بالحلال ويا ستّار تستر". ففي كل عمل الأساس هو "الله" والنيات و"الأعمال على ربي".

والملاحظ ارتباط كثرة المال في الذهنية الشعبية بالدناسة وقلة التدين فقارون الكافر هو رمز الثراء الفاحش، عبرت عنه الكلمتين الشائعتين "مال قارون"، ويتدعم هذا المدلول من خلال القول التالي: "الصغار يحبلهم مال كافر وصحة حافر وكيسة معمّرة ومرا مشمّرة" ولذلك تم تصور وفرة الرزق مصحوبة بالابتلاء والكفر "اكفر ترزاق" فغير أهل الإسلام "والله لا يرد فاس على هراوة" أغنياء لأنهم "جذّتهم في دينتهم" هكذا في التمثيل الشعبي، لأن "اللي يدق على باب جهنم يدق بحلقه ذهب". وبرغم إحياء الشيع، علامة الغنى، بالكفر و"إذا شيع بنادم كفر"، فإن الجوع علامة الفقر يحشر في أغلب الحالات في زمرة الكافرين "الجوع كافر بالله". صورة رجل الدين

يأخذ رجل الدين في التصور الشعبي عدة أشكال فهو قاض قاهر، وأخطر أدواره إذا كنت في خصومة معه "إذا كان خصيمك القاضي لشكون تشكي" وخصوصا "إذا كان القاضي عظمي والمفتي عظمي لشكون تشكي يا شومي" مما جعله يخلص أن "قاضي في الجنة وقاضين في النار". ونجد كذلك الولي يحوز في المخيال الشعبي موقعا هاما حتى لتضاهي الولاية النبوة التي تعين إلهي، فكان القوم الذين يُحرّمون النبوة يحرمّون الولاية "لا يتنبى فيهم نبي لا يتولى منهم ولي" فهو الدليل عند تشعب الطرق "يجعل في كل ثنية ولي وفي كل دوار فارس"، ولهم قدرة إشفائية ترجى مثل بعض أولياء القيروان "يا رجال صبرة داوو المريّض يبرا"، فهم في أقدس الأماكن، مدينة عقبة بن نافع، التي يجلبها الضمير الإسلامي "القروان مدينة عز لسلام". وبرغم المقدرة الهامة التي يتمتع بها الولي فهو يعجز عن تغيير المكتوب "اللي مكتوب ع الجبين لا تمحيه لا أولياء لا صالحين"، وقد تترد الذات ارتدادا كليا ضد معاجز الولي ومناقبه مقدرة ان فعله لا يتجاوز شخصه "كل ولي ينفع روحه".

ونجد كذلك صورة المؤدب، فرغم الثقة التربوية العالية فيه "عصاة المدب م الجنة" فإنه لا يؤتمن شرّه "المدب والعقرب لا تقرب"، إلى جانب ما تلحق به من نغوت الجشع التي يعبر عنها بسقوط المؤدب يوما في حفرة ورفضه أي وسيلة لإنقاذه، ولم يتم إنقاذه سوى بإيهامه إعطائه شيئا قالوا له: "يا مدب مد يدك، ما باش، قالولو هاك؛ مد يدك"، ويتطور تأكيد هذا المكر لدى المؤدب في التصورات الشعبية إلى حدود استشارته يوما، كيف السبيل لحصن فرج فتاة فاتنة في الحي؟ فأشار إليهم بإيداعها عنده دون غيره "خلوها عند المدب حتى تلقاؤها راجل"، حتى ليأخذ أحيانا صورة "إبليس ينهي ع المنكر".

وهذا الخطاب الموجه للمؤدب الذي يحضهم على التزكية يبين ارتباط العلاقة بين رجال الدين

والمؤمن البسيط "وقت اللي آنا في النافي والنفنا في، إنت وسط الجوامع دافي، وإ لا يصلحك منها لا الكرفة لا الصافي" لأن القاعدة تقول: "ما تخرج الصدقة كان ما تشيع مالي المحل"، فهناك يقين لدى التونسي "أن ما ثماش قطوس يصطاد لربي"، أو بصياغة أخرى للمثل "لو كان القطار يصطاد لربي راهم الفيران كلاونا".

ولكن بين هذه التنوعات تبقى صورة الشيخ أنقاها وأعلاها "اللي ما عندوش شيخ شيخو الشيطان"، وربما هذه الميزة عائدة للشرف الكبير الذي يتمتع به الشيخ المدرس في جامع الزيتونة، الذي كان حلم كل فتاة "إن شا إ تعرس وتاخذ مدرس" (بجامع الزيتونة). فعدد الشيوخ صاروا مضرب أمثال "الشيخ الكنزالي اللي خطوة لقدام خطوة لتالي".

الصلاة والعبادة

من أروع الأمثال التي صاغتها العقلية التونسية والمعبرة عن إيمان فاعل لا إيمان قدري، مستلهم من مزج بين الغيبي والمادي، فسورة يس المكية التي يحملها الوعي الشعبي قيمة وقائية من أي مكروه تتطلب تأهبا ماديا من أي "اقرأ يس والحجر في يدك" فالإتكال والقدرية ليس لهما مبرر "ارم روحك في البير وقول الملايكة دزنتي". فهو يقر بأن ما يجر للإنسان له دور فيه "شي من إ وشي من عبد إ" فـ"كربة من إ وكربة من عبد إ وكربة برعطاش ريال"، ولذلك نفى الإيمان الشعبي ادعاء الصواب لمن سعى للهلاك بساقيه مدعيا الشهادة "اللي يعرف دار الوبا ويموت فيها ما يموت شهيد" في حين أقر أن "اللي يموت غريب يموت شهيد". ومهما تعلل الفرد بقدر إ فإن له دورا في تحمل مسؤولية مصيره "حط كوزك عل الحدره وقول كبو ربي" فـ"شوية من إ وشوية من عبد إ"، ولكن إذا نزل الحدث فـ"المقدر كاين"، وأحيانا هناك رضاء بالقدر عن مضمض "وعد ربي علينا فعدنا كيف الكورة بين الذكورة".

وفي حديثه عن التقرب إلى إ يحذ التونسي العبادة الفردية "بينو بين ربي" ويتحاشى أحيانا الحشود فيها، لذلك كانت "الفراة عبادة" حتى ليصاغ قول شعبي على غرار الحديث القدسي يقول: "حبيتك يا عبدي حطيتك وحدك". وقد يصاغ القرب من إ بشكل ساخر "راس الفرطاس قريب لربي". كما قد يتحول التمعن في الجمال إلى شكل من أشكال العبادة "خزرانك للمليح تسبيح" وبالعكس "خزرانك للقبيح كفر صحيح". وهذا الفعل الطقسي قد تصحبه أحيانا دعوة لليقين والتسليم الساذج كما جاء في الأقوال التالية: "استعقد في الحجر يداويك(ينفعك)" و"الشي إ يا ولاي إ". ولكن هذه السذاجة الاعتقادية تصير مرفوضة أحيانا ومعبرة عن براغماتية "إذا تلقى الناس يعبدو في بهيم ارميلهم الحشيش".

وتحوز شعيرة الصلاة مهابة فهي رمز النقاوة والطهر "الصلاة والعبادة" ولكن قد ينظر إليها بكونها "الصلاة للعجائز"، ولذلك حفّت بها وبشروط وجوبها وأدائها عديد الأقوال الشعبية منها ما تعلق بالأذان ومنها ما تعلق بالوضوء والطهارة وغيرها، ففي غياب العمران يفتقد

الآذان "لقاو مدينة خالية قاموا فيها الآذان"، ويأتي الآذان تعبيرا رمزيا عن رفض حالة السكون، "ما كفاهش قبره طلع فوقو يذّن" أو بصياغة أخرى "اللي ما وسعاش قبره يطلع فوقه يذن"، أو عن رفض حالة السكينة "يذّن كيف السردوك". وهذا النداء المميز لديانة الإسلام لأداء أقدس شعيرة لدى المسلم قد يفتقد المنادي فيه لأي مصداقية، حتى قيل "كيف السردوك رجله في الخراء ويذّن".

ويعد أداؤها فاصلا بين التقى والفجور "لا يصلي لا يصوم ويعبد في الراي المشوم". ولذلك كان فوات صلاة الجمعة يفوق فقدان أحد الوالدين "ما تبكيش على أمك إذا ماتت وابلّ ع الجمعة إذا فاتتك"، وكان المتهاون في أدائها، أو بالأحرى غير المواظب عليها، فاشل المسعى برغم ما تخيل له نفسه من سواء السبيل "اللي صلى وخلص وصل للجنة وولّى". فكانت الصلاة عهدا بين الأهل والفرد غير قابل للانفصام "لا يخلصك م الصيام يوم و م الصلاة ركعة". وهناك سخرية من التعامل التجاري مع الأهل عند أداء الصلاة "بعد ما هردوه قام يصلي" فهي تؤدي خالصة لوجهه. وهي علامة عن صلاح الفرد وسمه رب العائلة الحازم "باسها داخ راسها صلى العشا وجا لقاها نافسه"، ولكن تتحول إلى طقس مذهري يغلب عليه النفاق والمخاتلة مثل "صلاة زعنون" الذي برغم مواظبته عليها إلا أنه ما كان يتمثل فيها النهي عن الفحشاء والمنكر، ومثل ذلك من "يخادع في ربي بالسبحة"، وكذلك مثل الذي أغري بالمال لأدائها واثقان وضوئها، فلما ظن أنه تعود عليها ورفع عنه التشجيع المادي، صرح أن كل صلاته كانت بوضوء واحد، لما يكابد فيه من مشقة، إذ "العادة غلبت العبادة" فصرح لمعلمه "على وضوك يا بي خليفة". وقد تتحول إلى شيء مذهري ذي مقصد ولائي مثل "صلاة القياد جمعة وعياد" أو تصيرا فعلا رتبيا يخلو من أي خشوع وطمأنينة حتى شبّهت سرعة أدائها بـ"صلاة القوبع"، القبرة، السريعة النقر أثناء أكلها. وهناك تلميح أن المتهاون في أدائها أيضا به شغف لتأديتها يوما، ولذلك بمجرد أن "كلّمته ع الصلاة سبقني للجامع"، ولكن غالبا ما يتم التعلل بـ"أهينا" و بـ"أهينا" يتوب علينا". وقد تتحول الصلاة إلى سلاح تهديد مثل القصة المروية عن الرجل الذي كلما صلى إلا وهلك غنمه، فانقطع عن أدائها فكفّ موتها، فأصبح يهدد بأدائها كل شاة قاصية قائلا: "إس لنصلّيك" فذهب القول مثلا.

ويوظف التونسي الجامع في دلالات اجتماعية فريدة مثل ما نجده من حث على تأسيس منطقية للأولويات كما في قوله: "حضّر الحصر قبل الجامع". وأعلى أماكن الطهر لديه تتلاقى في تعبير متمحور حول مثلث النجاسة والكلب والجامع، لتعبر عن حدث اجتماعي "طريحة كلب خرى في جامع" بصفة الانتهاء ناتج عن "طريحة التوبة"، والجامع قدس الأقداس قد يختلف فيه السلوك عن خارج "ما ناش في جامع".

كما يحتل الحج والحاج مكانة هامة "يا سعد من حج وتاب وحط ولد في الكتّاب" لأن تقبيل

الكعبة غاية المنى لدى التونسي "تبوس الكعبة"، وهو يتطلب تقشف خاصا "اللي يحب النبي ويزورو ياكل الفول بقشورو". وبرغم الصرامة العالية التي تلزم مؤدي هذه الشعيرة بالانتهاء عن عديد المباحات، مع أدائها في وقتها المضبوط وشكلها المعلوم، المتلخص في القول الشعبي "اللي حج حج واللي عوق عوق" فإن أداء هذه الشعيرة قد يرفقه غرض دنيوي "حج وحاجة"، وهو مما لم يرد نهى بشأنه. ولكن المؤدي لهذا المنسك قد لا يدخل عليه أي أثر في سلوكه وعوائده "حج وزمزم ورجع للبلاد متحزم"، لذلك كان الترجي "إلا يفكنا م الحاج والعجاج والبحر إذا هاج". وتنبيه الحس الشعبي لخلو بعض ممارسي هذه الشعيرة من أي إصلاح خصوصا من "حج باش يجيب لسم"، ولذلك نشأ حذر وتحذير من "حاج مرة فكني من شره"، حتى قيل "عم الحاج حج وأماره الحج عليه، أما الغمرة والهمزة باقية فيه". ونظرا لمشقة الحج سابقا، يتمثله التونسي أوج التقى والتقرب من الله، ولذلك يعدّ لديه "الحج يغسل الذنوب"، وتؤكد عبارة تهنئة الحاج هذا الاعتقاد "حج مبرور وذنوب مغفور"، وما يفوق الحج إلا "الخدمة ع الولاد خير م الحج والجهد".

وأما الصوم فله تقديس ملحوظ بين مسلمي شمال إفريقيا وقد يتجاوز هذا الفعل شهر رمضان إلى الشهور الأخرى "يا فريسة العجب صمتيش نهار في رجب". ويمثل رمضان للمسلم محورا طقسيا زمنيا غني الدلالة "الدنيا فانية لا حال يدوم رمضان البارح والعيد اليوم"، وهو زمن محدود حتى صار مثلا في التحدث وعدم التداخل "آش دخل شعبان في رمضان". وبرغم الاهتمام الكبير بشهر الصيام هناك تلميح لمشقة العناء فيه حتى صار مضربا للأمثال عند من لا تقدر نفسه على الصبر "صار نهار في رمضان قال العيد آش مزّ الو" أو في القول "على ملاحه رمضان نزيد نهار"، ولكن هذه المشقة بثوابها فـ"اللي صام وعيّد غنم واللي فطر فرط وندم". وقد يتحول أداء العبادة أحيانا إلى غرض مرائي أمام أعين الناس لمخاتلتهم وإيهامهم بالتقى، شاع البيت الشعري المعبر عن هذا السلوك على الألسن:

صلى وصام لأمر كان يقضيه فلما قضى أمره لا صلى ولا صام
وقد يتحول الصوم والصلاة إلى عادة وتقليد اجتماعيين يخلوان من صدق اليقين "الصوم عادة والصلاة عبادة واللي تحب تجربو في هذا" (أي الفلوس). و"الصلاة عادة والصيام جلادة والدين في المفروش والمنقوش". ولشدة تغلغل شعيرة الصوم لدى التونسي نجده يصعد به إلى مدلول ترميزي واسع قائلا: "ما خفناش من رمضان الذكر حتى ماش نخافو من عاشورا". كما تنبيه الوعي الشعبي أن هناك من "ما يعرف ربي كان ليلة الرعد" تفتن أيضا إلى الانقلاب النفسي الديني الذي يحدث داخل بعض العائلات التي تعاني من اهتزاز ديني وخلق، فيتحول بعض أفرادها فجئيا إلى الطرف النقيض مما كانت مشهورة به العائلة فقيل: "أولاد السراق يطلعو مؤذنين" وأحيانا يدمج الأمر في تفسير "سنة الله في خلقه" و"خلق العباد كيف ما اشتهى

وراد" و"الهداية هداية ربي" و"المترابي من عند ربي".

الزمن

ينحشر الديني في الزمني حتى ليصير "اللي عند ربي موش بعيد" خارج الزمن العادي والمعتاد، وكذلك في تصور التونسي "اللي ما تخفاه خافية" فكما "أنا نراه وربى يراه"، وقد ينقلب القول أحيانا إلى "أنا وراك وربى يراك" لأنه تعالى "يمهل ولا يهمل" فـ"ميمونة تعرف ميمون وميمونة تعرف ربي". وفي الدلالة على الثبات الزمني تحضر مقولة "بقات دار لقمان على حالها"، أو على التحديد المضبوط "اللي كلا الحلوف يبقى أربعين يوم حلوف"، وأما للحث على ضرورة الإسراع فنجد "المغرب فارس" والتي تقابلها الدعوة للترث ودمّ العجلة في قول "يقص يد السارق قبل ما يسرق" ولذلك وجب إعطاء كل أمر أجله المناسب فـ"ميت الجمعة يجيه السبت ويتحاسب" حتى لا يكون مثل "اللي قالو بكّر تاكل بالسفنج صلي العشا وجا"، وأحيانا يفضل التريث وإطالة الأشياء، عبر عنها في القول "احكيلى على سيدنا يوسف.. طاح في البير وطلعوه". أو إذا كان مزدوج التوقيت "معود للموسم وإلا لعاشورا". ونجد في التصور الشعبي زمنا إيمانيا صاغته الفاكهة الشعبية حول المرأة دون الرجل "بنت العشرين لا عقل لا دين، بنت الثلاثين تفاحة للناظرين، بنت لربعين كسكي ولحم سمين، بنت الخمسين تولي أم المومنين، بنت الستين أعوذ بالله من الشيطان الرجيم". تنساب "أ" غالب" على لسان التونسي بشكل دائم، وهي لا تعني استسلاما للقدر بل فعلا يعقبه تسليم أساسه "خليها على أ" لأن "اللي يعمل على أ" ما يخب". فأساس ذلك "اعمل ربي في بالك وازهى للدنيا تزهالك" و"تفكر مولاك" ولا تكن كالذي "ياكل الدنيا ويتسحر بالآخرة"، لأن "العجلة م الشيطان"، ومستحبة فقط "الرغبة في الدين" فـ"أمر أ" يقضيه أ" لأن "اللي يشد يشد في ربي"، فكان الحث "توكل على الحي القيوم ما ثمة شي يدوم". ولطالما التحم الزمن عند التونسي بذكر الموت الذي هو حق، فـ"عظمّ أ" مصيبة الموت". ولذلك كلما ورد ذكرها قال: "سبحان اللي لا يموت" "لأن الدنيا فانية" فـ"الخير ما يدوم والشر ما يدوم كان الحي القيوم". وعبارة إخباره بها "صار الدوام أ". وهو لا يريد لها فتنة ولذلك قال "ادفنو موتاكم وارجعو لمولاكم" كون الإنسان "اللي حبو ربي زارو" لأن "الأعمار بيد أ" لديه، ولذلك يطلب التونسي طول العمر بـ"أ" يكبرنا في طاعته" لأن "اليوم واسعة وغدوة ضيقة" فـ"الدنيا بالوجوه والآخرة بالفعائل" ولذلك قيل "كيف يوم الآخرة نفسي نفسي" إذ "اللي تعملو تلقاه وتفرشو وتتغطاه"، حتى قيل "الغسال يغسل وما يضمنش الجنة"، وقد يخرج البشري من التقييم الجلي أحيانا مثل "لا تعرفها عند اللي يصلي ويصوم ولا عند اللي يسكر كل يوم". راضيا بأن يكون "قد الصحة قد القدر حتى باب القبر"، فهو يطلب أ" لا يثقلنا عظام"، فـ"بين اللقمة واللقمة حاكم يحكم"، لأن "ما يدوم فيها كان وجه ربي"

فـ"إذا ضاقت عليك الأمور عليك بزيارة القبور"، وإذا مات إنسان "أـ يرحمو" متمنين له "من دنيته لجنته" ومنتهين عن أي انتقاد له لأن "الدق في الجيفة حرام".
دعاء الخير

يترجى التونسي أـ بأشكال متنوعة وفي مواقف مختلفة وأحيانا متضاربة، بيد أنها تأتي متسقة مع تركيب نفسيته، وليست هذه الترجمات باتجاه النفس فحسب، بل باتجاه الغير أيضا في شكل دعاء. فله إيمان قوي بـ"ادعوني أستجب لكم" فهو يرجو ربه "اللهم ارزقنا العافية والرزاق الكافية واللطاف الخافية"، ولذلك يدعو "اللي فيه الرضا والخير ربي سهل فيه"، طالبا الستر والعفو من ربه "أـ يبعد علينا أولاد لحرام وبنات لحرام اللي لا ينامو لا يخلو مين ينام"، ملحّا "أـ لا يعطينا ما يغلبنا".

وتتنوع أغراض هذه الأدعية فمنها الموجهة باتجاه الذات، يحاول من خلالها أن يؤسس حصنا منيعا أخرويا ودنيويا "أـ يحفظمنا دنيا وآخره" راجيا أثناء تلك المسيرة العفو "أـ ارقد وقوم واطلب العفو من ربي" والعافية "أـ لا يثقلنا عظام" لخشيته من وهن العظم وثقل الجسم "أـ لا يعظمنا فرايس" و"أـ يجعل مرض البيّ صحتي" في تهكم عمن يتمارض. وطالبا كذلك الستر "أـ لا يفضحنا" ليقينه "ماذا من متهوم في الباطل شنقوه وماذا من قتال ستر أـ غطّاه". ولعل أهم تمظهرات هذه الصحة السلامة العقلية والرشاد الديني "أـ يحبس علينا العقل والدين". والملاحظ أن هذه السلامة الجسدية التي يترجاها التونسي تكتمل لديه برجاء في ثبات العوائد "أـ لا يبطلنا عوايد" و"أـ لا يقطعنا عادة" و"أـ لا يخيبنا طباع". وبالابتعاد عن الشر "أـ لا يحضرنا محاضر سوء" وأخباره "أـ يسمعنا علم الخير"، ولذلك يطلب متبرئا "أـ لا ترحم مين كان سبب" طالبا "أـ لا يخلصه وحله".

وفي علاقته بالمرأة تحضر لديه عديد الترجمات والأدعية، التي قد تأتي ممتزجة بطلبات دنيوية، قد تنزع بها بعيدا عن وحدة المقولة أو المثل "أـ يفكنا من فلس الحمارة وصابة الجرارة والنساب الفقارة"، والتي تتقارب مع "أـ يفكنا من جوع الشتا وعطش الليالي" من حيث بنية التركيب والطلب الدنيوي. وقد يتنكر أحيانا للتقييم المالي للمرأة كما في "تزوجوا فقراء يغنيكم أـ" ويصبح الترجي من نوع آخر "أـ يفكنا م المرا المشعارة والراجل لملط"، أو قد يقال المثل بشكل معكوس "بارك أـ في الراجل المشعار والمرا اللمطا" و"أـ يفكنا م المرا المهبولة والواطي إذا نال دولة". وقد يكون اختياره للمرأة ممزوجا فيه شرط الدين بالشرف "لقى لسلام ويلوّج ع الشرف" أو بصيغة الجمع "لقينا الجنة حتى نلوجو ع الشرف" أو بعبارة أخرى "لقيت الجنة وتدعي بالشرف".

ولكن بعد تجربته الزوجية قد يعبر عن مرارة خيبته فيقول: "جيت نعرس ونتهنى نلقى العازب في جنة" أو قد يقرر خطأ بشأن المرأة "المرا ناقصة عقل ودين وميراث".

وبقدر ما هناك أدعية موجهة للآنا هنا أخرى موجهة للغير، ولعل أعلاها "إا يفكر بالشهادة" يوم النسيان الأكبر، فمن حسن خواتم المؤمن ذكر الشهادة "حديث بلا زيادة كيف الموت بلا شهادة". وقد تتحول الأدعية إلى تمنيات دنيوية مباشرة وأحيان مغلفة ب خطاب رمزي مثل "إا يربح شيرتك ويملا غديرتك ويفيض خميرتك" أو "إا يجعلك إنت تخلط والرسول يبارك" أو "إا يجعلك وين تحرث تصيب ووين تمشي تجيب" أو كذلك "إا يجعلك وين تقبل تربح". وقد يختلط المعنوي بالمادي "إا يعطيك الهيبة والمال بالويبة"، ويكاد يكون الطلب المادي دائم الحضور "إا يفكك م الفقر إذا ضاق وم المبارة إذا كتبت صداق"، فالتونس إذا ضاقت يقول: "إا يفتح علينا وعلى أمة محمد" و"إا يسهل في ما هو صعب" وإذا خشي المستقبل قال: "إا يقدر الخير". وإذا ما تمنى لك خيرا قال: "إا يعطيك ما تتمنى" و"إا يعطيك بالوقت الطيب" و"يفتح الببان المغلوقة قدامك" وكذلك "ربي ياتيك بريح النصر" و"إا يعليك على من يعاديك" و"إا يهديك ويبعد البلا عليك".

ولما في المخيال الجمعي من ريبة وخشية ممن بيده السلطة صيغت أمثال فريدة "إا لا يحضرنا قدام حكام لا بالحق ولا بالباطل"، وقد يلعن السياسي سرا مثل "إا ينعل البي" في غيبته "ومؤمننا أن "كل فرعون وراه موسى"، أو يتمنى التحوير والتحول السياسي المتلخص في قول: "إا ينصر مين صبح" وقد ينقضه في التو بتمني الثبات "إا يرحمك يا راجل أمني لوّل". كما يدعو التونسي ربه ويستعيز به من ثلاث "إا يفكنا ويفككم م الوقت الكاسد والجار الحاسد والغني الفاسد" فكل مصيبة لديه "قدّر ربي" لإيمانه أنه "ما يسلط قضاءه إلا على خيار خلقه" ولذلك يقول: "دفع إا ما كان أعظم" فالمصيبة "تخفيف م الذنوب" و"إن شا إا في المال ولا في الأبدان" أو بشكل مجازي "إن شا إا في الورق ولا في العتق". ويستعيز بإا أيضا من الكبر والتفاخر "أعوذ بإا من كلمة أنا" ويهزأ ممن يدعي الرفعة وهو وضع "إا لا يوسخ مكة بالحرايمية" و"لا يشوه مكة" و"اسم إا على المبرّ لا يتغير"، وينفر أحيانا من أن يكون محل سخرية "إا لا يجعلنا فرجة" أو أن يشذ عن الجمع في قوله: "إا لا يقلبنا سلايخ".

في علم الغيب

تحضر عديد الكائنات الغيبية في تمثل التونسي للوجود وقد يتفسر كائن غيبي بكائن آخر مثل "اللي يموت م الجنون يخفف ع الملايكة". وقد ينبع الجنس البشري بشكل رمزي لديه من عالم الغيب "البنات زريعة بليس فيسع يكبروا والولاد زريعة ربي"، وقد يلاحظ تميزا مصدريا بين الجنسين ولكنه غير ثابت فقد يتساويان "ولد باب إا - بنت باب إا". والجنة في ذهن التونسي هي غاية المني لأنه "بشره بالجنة بم" في النعش" ويرتبط مقام الجنة في ذهن التونسي باليسر عبر عنه الأمر بـ"حل في الجنة ذراع"، ولكن عبر عن صعوبة دخولها "جنة

وطرافها نار". فـ"خير بلا شر هي الجنة وشر بلا خير هي جهنم"، فكانت الجنة لديه خيرا مطلقا وحلاوة مطلقة عبر عنها القول "جنة وفيها البقلاوة"، بيد أن "الحماة ما تحبش الكنة ولو تكون حورية م الجنة" أو كما صيغ هذا المثل في قالب آخر "مكتوب في السما الحما ما تحبش الكنة والكنة ما تحب الحما". في حين في جهنم على النقيض فهي "جهنم الحمرا"، ولذلك استحال في تصور التونسي "أخدم جهنم وموت بالبرد"، ويعد "الشكاك من أهل جهنم"، وكل من قلّ خيرُه وكثر شره كان "محمّاش جهنم"، وكان وحده "ما يحرق بالنار إلا العزيز الجبار". وقد تكون - بشكل ساخر - "وجوه جهنم" معروفة لديه و"العلم عند ربي"، كما يقول "إذا كان النعش مكسر والحمّال أعور يكون الميت من أهل جهنم". والملاحظ أن كل هذه الغيبيات تنقص أحيانا بـ"أشكون مشى للقبر وجاب الخبر".

العلم نور

الإنسان دون معرفة هو "نية رب العالمين"، أو بهيمة أنعام، كما عبر القول "بقرا" في زرع الأرض. بليغ هذا التعبير وجامع وشامل، فيه إقرار أن "العلم شتى والمعبود واحد" وفيه إدراك صائب لمعنى الدين "اللي شاورك شاركك في دينك" لقناعته أن "ما يقنع برايو كان الشيطان". وما نجده في تقاليد دينية مختلفة من تقديس لاسم الله الأعظم كونه مكنم الأسرار و"الكمال" يمثل لدى التونسي رجاء واستلهاما لديه "بجاه اسمه وعلمه"، فمن وعاه بلغ سدره المنتهى حتى قيل: "حافظ العلم اللادّري" ولذلك كان "قلب المؤمن خبيرو" لصفائه. وكان الوالد في حقله العائلي الأصغر شبيها بالرب في حقله الكوني الأكبر "البو يعرف ولاده والرب يعرف عباده". كما كان الإقرار بتفوق الآخر العلمي والمعرفي مدعاة للدعاء له "الله يرحم مين قرّى وورّى" وقد يتبعها أحيانا بـ"الله يرحم مين ولد ومين ربّى" كما نجد هناك إكبارا لدور السلف في ما خلفوه من حكمة "الله يرحم الناس لولانين ما خلاو ما قالو". ويتجلى موضوع المعرفة في عديد الأمثال على لسان التونسي حتى أنه في طلبها هناك إلحاح مفرط يصوره قول: "اسأل على دينك حتى يقولو مهبول" وغالبا ما يكون إلحاحا في السؤال وطلبا للشرح متعللا بـ"لا حيا في الدين"، وهذه المعرفة قد تتلخص لديه في حفظ القرآن الكريم ولذلك نعت المتفقه دينيا بكونه "حافظ الستين" و"حافظ ستين حزب"، ويرى أن هذا الحفظ الذاكري للقرآن في متناول الجميع لولا صعوبات بعض السور التي تكثُر فيها المتشابهات، وبخبرته لخصها في الصور المبتدئة بـ"حم" ولذلك "كان موش م الحواميم يحفظه حتى البهيم". وبرغم التقديس للمعرفة لدى التونسي والإشارة لأهلها وأصحابها "خود العلم من تازركة وراس الشرع بني خلاد" هناك تهكم من الادعاء الزائف للمعرفة "عرف من الله على عبد الله" وسخرية من التفريط في طلب العلم في سن الصغر "بعد ما شاب هزوه للكتّاب وزغرطو عليه كناية" وتهكم من الخيلاء لما يتناقض مع التواصل المعرفي "تفقهتم يا أهل باجة قلتم للحمار إرين".

وهناك أيضا تنبيه لتوظيف المعرفة في غير موضعها "يعرف ربي ويحاييل"، حتى أنها تفتقد طابعها الخلقي الذي عبر عنه القول "يعرف ربي ويخرى في القمح". وهناك أحيانا سخرية من بعض الاعتقادات الزائفة "بعد ما شاب علقولوا حجاب".

فقهيات

يلخص التونسي عديد القواعد الفقهية في أقوال مائعة جامعة، مستلهما مقاله فيها من آية أو حديث أو قاعدة شرعية، ومحذا الوجه الجلي للشرع عن الوجه الباطني "الشرع يحكم بالظاهر"، ويدرك التونسي أن الفهم الحرفي والاتباع اللفظي للمقول الديني مدعاة أحيانا للمتاهاة وهو ما صاغه في المثل البليغ "اللي يتبع الشرع ضاع" والذي قد يبدو لأول وهلة متناقضا مع القول "اللي خلى كلمة م الشرع ولالها"، ولكنه متكامل من حيث التمسك بالكليات والاقتدار على تحويل الجزئيات، لأن هناك تكامل بين "شوية لربي وشوية لقلبي"، مثل القاعدة المصوغة "العادة أبجل م العبادة" في تقديم الأكل وتأخير الصلاة، أو في إعادة صياغة قاعدة الضرورات تبيح المحظورات بـ"الغاصص يعدّي بالخمير" وقيل في مقابلها "من تداوى بمحرم لا شفاه □". ورفض كذلك انتهازية الافتاء في قوله: "هاذي فتوى للجيعان" أو في "إذا حضر الماء بطل التيمم"، أو في إلباس الحرام بالحلال "الجدي جيفة ومصيرنا ته حلال". فجلي استلهم أبغض الحلال عند □ الطلاق وصياغته في شكل أقرب للتأثير الشعبي وكأنه له وعي بالتأثير النفسي للخطاب "الطلاق يشق باب العرش" فأساس الفراق في "تعرش وفارق وقول □ يخلف الخالق" (للمطلق). وبرغم إقراره الجامع "لا حرم □ وارث" فإنه أعاد صياغة عديد قواعد الميراث في مقوله الشعبي "اللي مات بوه قبل جده لا ليه ولا لولده" "اللي مات بوه قبل جدو ربي قردو".

اليهود والنصارى

يحضر اليهودي والنصراني وغير المسلم بشكل جلي على لسان التونسي، فهو يمثل الآخر الديني لديه. وقد يكون أحيانا قريبا ولا فرق بينه وبين المسلم مثل ما نجده في أقوال "اخدم مع النصارى واليهود وخل جيرانك شهود" "اخدم اليهود والنصارى ولا قعدانك خسارة" "عينتك في النصارى ولا قعدانك خسارة"، أو "اعمل الخير حتى في اليهود يحفظك ربي م العدو والحسود" لأنه "خيار المومن قلبه صافي". وكما كشف هذا الاندماج عن تنبيه لعاداتهم "كيف دفينه اليهود الجري والسكات" لزم الحذر فيه فـ"إذا ريت يهودي ضحك لمسلم راهو باش يغشه". ففي المخيال الشعبي هناك ريبة دائمة من اليهود وإقرار بشطارته فمن المتعذر أن يكون "يهودي ودرويش" "إذا ريت يهودي يذم في سلعة راهو باش يشريها"، ومعروفة صرامة اليهودي التجارية، وهو عبر عنها القول الشائع "تكلف عليهم لحم (شحم) يهود". ولما عرف عن شطارة أهالي أكودة بمنطقة الساحل التونسي ضرب بهم المثل مقارنة باليهود "ألف يهودي ولا

أكودي".

وحاول الرصد الشعبي تحديد السمات السلوكية والاجتماعية لهذه التكتلات الدينية غير الإسلامية. فمثلا في المعاملات التجارية لا يتعامل اليهودي بشفقة، ولا يهمل شيئا فهو "إذا فلس اليهودي يدور على عقوده القديمة". و"إذا كان اليهودي خرج من عيدو يا ويح اللي يطيح فيدو". وقد فاز اليهودي بنصيب أوفر من الأمثال والأقوال في الذاكرة الجماعية من النصراني، وجاءت الأقوال تجاه النصراني خالية من الحدة والصرامة بمثل ما عليه مع اليهودي. فالفعل الذي يرجى منه نفع هو شبيه بـ"حجرة في كنيسة" حتى قيل "الطول والخسارة كيف سلوم النصراني". وربما لكثرة النصراني وعمق تأثيرهم كانت الدعوة للمسلم لتجنب الإقامة بين طهرانيهم خشية تطبّعه بطباعهم وعوائدهم بما قد يؤثّر على دينه فقول: "اللي شاف بر النصراني مشات حياته خسارة". ونجد تمييزا في التصور الشعبي بين اليهود والنصراني، على غرار ما نصادفه في القول الشائع المتعلق بالأكل، "كول مع اليهود وما تنامش معاهم وارقد مع النصراني وما تاكلش معاهم" أو بصياغة أخرى "كول ماكلت اليهود وارقد في فراش النصراني" لاعتقاده بحلّية أكل اليهود وتذكيّتهم وعفونة بدنهم ومسكنهم، التي لازمتهم منذ أن نامت زوجاتهم مع جثامين أزواجهم على حسب ما ترويه الخرافة الشعبية عنهم، لما توسلت نساؤهم باكيات إلى الإمام علي (ك) فدلهن إلى ذلك الأمر حتى يحملن مجددا ولا ينقرض نسلهن. وقد تصبح قاعدة الأكل مرتبطة بشكل آخر وهو حد النظافة "كول مع الكافر وما تاكلش مع بوطوافر" لأن "النظافة م الإيمان والوسخ م الشيطان". وأحيانا يجمع اليهود والنصراني في سلة واحدة باعتبار "الكفر ملة واحدة" بصفة الثنائي "عدونا وعدو نبينا" لأنه "كل عدو ترجى مودته إلا من عاداك في الدين"، حتى قيل "جور المومن ولا عدل الكافر"، مما خول لصياغة قول "اسرق النصراني واليهود وخلي الجيران شهود"، وإذا ما تخاصم غير المسلم مع غير المسلم "ربي يسلط الكفار ع الفجار".

الكلام الزين

ترتبط الأخلاق ارتباطا متينا بالدين "إذا تحب عرضك مستور أخطى الخمر والقمار والفجور" لأن "الشراب يجيب الفتنة"، صائغا قول "كفر بلا لذة" لمن يشرب الخمر وهو كاره لمذاقها، فهما لديه سواء "سوكارجي يعظم على قمارجي". ولذلك أقر أن "اللي فر من هواه الجنة مأواه"، بناء على أن "ثلث الإيمان حياء وثلثه عقل وثلثه جود"، فالحياء قيمة عالية لدى التونسي عبر عنه في قوله "الحيا م الإيمان" و"الحيا م الدين"، "جيدان العرض لا يحبو لا ربي لا العبد". فمهما كان الخطأ، لإيمانه أن "الشيطان حي"، كانت الدعوة دائمة "ارجع لمولاك" حيث التوبة سهلة "استغفر مولاك" فـ"لا يغفر ويسامح"، لأنه "عشرة معاصي تحت ربي ولا واحدة تحت العبد"، ولذلك طالما يفوّض الأمر إلى "فمي مغلوق وقلبي صندوق وربي من فوق

يخلص الحقوق"، وهناك تستر عن الذنب ومحاولة لإخفائه "استر ما ستره".

وبكون النبي قدوة لديه في الدين والدنيا لأنه "ما كامل كان سيد الخلق"، هناك إقرار رصين يصح به التونسي "آمنا بحبيبتنا وشفيعنا"، ولذلك كانت قمة البهجة لديه مكسوة بترديد "الصلاة على محمد" و"الصلاة على النبي". وهذه البهجة قد تعقبها نكبة كما ورد في "قد ما صلينا على النبي كلاووه الشياه". وبرغم ذلك التونسي يكثر من الصلاة عليه حتى قيل "مشتاق شرا دار يخزر لحيوطها ويصلي على النبي"، وهو يترجى "الله لا يبلينا إلا بحب" النبي. حيث "ألف ولا تزيه"، فمحمد (ص) ذكره مجلبة للخير والحماية في التصور التونسي، ولذلك يردد "خمسة وخميس يحضر محمد ويغيب بليس" وقد تلحق بـ"تبارك الله عليك وعيني ما تضرك". و"الجار وصى عليه النبي" ولذلك وجب على المسلم تقليد نبيه الذي وسع صدره كل شيء إلا أمرا فـ"سيدنا ما رجع من جرتته كان الكذاب" لأن "الكذب سلطان المعاصي".

قول الصدق وفعل الخير

وكما يقرن التونسي بين اجتناب الشرك والصدق في المعاملة "لا تشرك بالله ولا تغر بالعباد"، يعتبر قول الحق جوهر الدين ولذلك يأمر بـ"قول الحق وموت على دينك" لأن "الكذب سلطان المعاصي" و"الرجوع للحق فضيلة" كما "الرجوع إلى طاعة". فـ"الكمال لله" كل إنسان يخطئ، ولذلك كان الحث "توب إلى يتوب عليك" فـ"اللي قر بذنبه لا ذنب عليه" لأن "باب التوبة مفتوح" و"الرجوع إلى طاعة"، حتى في الحالات التي يبتلى فيها بالسجن، حتى وإن كان مذنباً يقول التونسي: "الله يطلق سراحه" أو "الله يخلص وحله" وأحيانا عكس ذلك "اللي يعمل بيدو ربي يزيديو".

فلا رقيب على التصريح بالحق سوى "بيني وبينك ربي" لما لاحظته أحيانا من انتشار الكذب في معاملات السوق "البائع زلاصي والضامن سعيدي والمثلوثي عليه بتقوة الله"، وهو ما يكون فيه القسم سهلا، فخلص أن "الحلاف كذاب". ولأن "حب الكذب قصير" خلص إلى استحالة إخفائه "اللي يسرق (يطيح) صمعة يحضر لها بير".

ويحبذ فعل الخير لأنه "ما كان الله دام واتصل وما كان لغير الله انقطع وانفصل" وخصوصا بشكل "اعمل الخير وانساه" لأن لديه "سعدك يا فاعل الخير" وفي ما ناقص الخير قال: "الله لا يجعلنا جرة" فالإنسان "يلقى فعله" لإقراره أن "اللي كليناه ربحناه واللي اعطيناه لقيناه واللي خبيناه خسرناه". وقد ينقلب فعله الخير سوءا "جبتة الله ولاه علاقة"، ولذلك قال أيضا: "اعمل الله تولي علاقة". ففي حالات غضبه عن شخص عادة ما يقول: "الله يقطع رقبتة" و"الله يقصف شبابه" إذا كان صغير السن.

يعبر الضمير الشعبي عن بهجته بالضيف بقوله: "الضيف ضيف ربي" لكنه يستثقل الضيف أحيانا، لأن "زيارة النبي ثلاثة أيام". ولذلك غالبا ما يردد "بارك الله في من زار وخفف" لأن "الأرض

اشتكت لخالقها وقالت له: يا نعم الوكيل جبالك الرواسي ولا عبدك الثقيل".
ومن القناعات لدى التونسي أن "اللي أصلو طيب ياتي بالمعروف" فكان تذكيره دائما
بـ"ارحم من في الأرض يرحمك من في السماء". فكان يفعل الأمر، لا يريد جزاء ولا شكورا دنيويا
"اللي يتصدق على المساكين بلا منة كيف اللي خزّن كنز في الجنة" و"اللي يربي يتيم أجرو
على الله" أو "اللي يربي جريّو أجرو على الله"، حتى قيل "انفق على اليتيم يعطيك الله أجر
عظيم" بمثل "اللي يجهّز ميت غريب يبنيلو ربي قصر في الجنة".